وقد ضربنا لذلك مثلاً بشاهد الزور الذى تستعين بشهادته ليُخرجك من ورطة ، أو قضية ، فرغم أنه قضى لك حاجتك ، وأخرجك من ورطتك ، إلا أنه قد سقط من نظرك ، ولم يعُدْ أهلاً لثقتك فيما بعد .

لذلك قالوا : مَنِ استعان بك فى نقيصة فقد سقطْتَ من نظره ، وإنْ أعنْتَه على أمره كشاهد الزور ترتفع الرأس على الخصم بشهادته وتدوس القدم على كرامته .

ثم يقول الحق سبحانه عن كلا الفريقين :

﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ﴾

﴿ كُلاًّ ﴾ أى : كلاً الفريقين السابقين : مَن أراد العاجلة ، ومَن أراد الآخرة : ﴿ نُمِدُّ هَـٰؤُلاءِ وَهَـٰؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [الإسراء]

أى : أن الله تعالى يمدُّ الجميع بمُقوِّمات الحياة ، فمنهم مَنْ يستخدم هذه المقومات فى الطاعة ، ومنهم مَنْ يستخدمها فى المعصية ، كما لو أعطيتَ لرجلين مالاً ، فالأول تصدَّق بماله ، والآخر شرب بماله خمراً .

إذن : فعطاء الربوبية مددٌ ينال المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى ، أما عطاء الألوهية المتمثل فى منهج الله : افعل ولا تفعل ، فهو عطاء خاصٌّ للمؤمنين دون غيرهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً ﴿٢٠﴾ ﴾ [الإسراء]

أى : ممنوعاً عن أحد ؛ لأن الجميع خَلْقه تعالى ، المؤمن والكافر ، وهو الذى استدعاهم إلى الحياة ، وهو سبحانه المتكفّل لهم بمُقوّمات حياتهم ، كما تستدعى ضيفاً إلى بيتك فعليك أنْ تقومَ له بواجب الضيافة .

ونلاحظ هنا أن الحق سبحانه اختار التعبير بقوله : ﴿مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ .. (٢٠)﴾ [الإسراء]

لأن العطاء المراد هنا عطاء ربوبية ، وهو سبحانه ربّ كلّ شىء . أى : مُربّيه ومتكفّل به ، وشرف كبير أن يُنسبَ العطاء إلى الرب تبارك وتعالى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (٢١)﴾

الحق تبارك وتعالى أعطانا قضايا إيمانية نظرية ، ويريد منّا أنْ ننظر فى الطبيعة والكون ، وسوف نجد فيه صدْق ما قال .

يقول تعالى : ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. (٢١)﴾ [الإسراء]

والمتأمل يجد أن الله تعالى جعل التفضيل هنا عاماً ، فلم يُبيّن مَن المفضَّل ومَنِ المفضَّل عليه ، فلم يقُلْ : فضلت الأغنياء على الفقراء ، أو : فضلت الأصحاء على المرضى .

إذن : فما دام فى القضية عموم فى التفضيل ، فكلٌ بعض مُفضَّل

فى جهة ، ومُفضّل عليه فى جهة أخرى ، لكن الناس ينظرون إلى جهة واحدة فى التفضيل ، فيفضلون هذا لأنه غنى ، وهذا لأنه صاحب منصب .. الخ .

وهذه نظرة خاطئة فيجب أن ننظر للإنسان من كُلِّ زوايا الحياة وجوانبها ؛ لأن الحق سبحانه لا يريدنا نماذج مكررة ، ونُسَخاً مُعَادة ، بل يُريدنا أُنَاساً متكاملين فى حركة الحياة ، ولو أن الواحد منّا أصبح مَجْمعاً للمواهب ما احتاج فينا أحدٌ لأحد ، ولتقطعت بيننا العلاقات .

فمن رحمة الله أن جعلك مُفضّلاً فى خَصْلة ، وجعل غيرك مُفضّلاً فى خصال كثيرة ، فأنت محتاج لغيرك فيما فُضِّل فيه ، وهم محتاجون إليك فيما فُضِّلْتَ فيه ، ومن هنا يحدث التكامل فى المجتمع ، وتسلَمُ للناس حركة الحياة .

ونستطيع أن نخرج من هذه النظرة بقضية فلسفية تقول : إن مجموع مواهب كل إنسان تساوى مجموع مواهب كل إنسان ، فإنْ زِدْتَ عنى فى المال فربما أزيد عنك فى الصحة ، وهكذا تكون المحصّلة النهائية متساوية عند جميع الناس فى مواهب الدنيا ، ويكون التفاضل الحقيقى بينهم بالتقوى والعمل الصالح ، كما قال تعالى :

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات]

لذلك يجب على المسلم أن يلتزمَ أدب الإسلام فى حفْظ مكانة الآخرين ، فمهما كنت مُفضّلاً فلا تحتقر غيرك ، واعلم أنَ لهم أيضاً ما يفضلون به ، وسوف يأتى اليوم الذى تحتاج إليهم فيه .

وقد ضربنـا لذلك مثلاً بالعظيم الوجيـه الذى قد تضطره الظروف وتُحوجه لسبـاك أو عامل بسيط ليؤدى له عملاً لا يسـتطيع هو القيام به ، فالعامل البسيط فى هذا الموقف مُفضّل على هذا العظيم الوجيه . ولك أنْ تتصورَ الحال مثـلاً إذا أضرب الكناسون عدة أيام عن العمل . إذن : مهمـا كان الإنسان بسيطاً ، ومـهما كان مـغموراً فإن له مـهمة يفضّل بها عن غيره من الناس .

خُذ الخـياط مـثلاً ، وهو صاحب حـرفة مـتواضعـة بين الناس ، ولا يكاد يُجيـد عمـلاً إلا أن يخيطَ للناس ثيـابهم ، فإذا ما كـانت ليلة العيد وجدته من أهم الشخصيـات ، الجميع يقبلون عليه ، ويتمنون أن يتكرم عليهم ويقضى حاجتهم من خياطة ثيابهم وثياب أولادهم .

وبهذا نستطيع أن نفهم قَوْل الحق تبارك وتعالى : ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ[1] فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا[2] وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢)﴾ [الزخرف]

فكل منا مُسخَّر لخدمة الآخرين فيما فُضّل فيه ، وفيما نبغ فيه .

وصدق الشاعر حين قال :

النَّاسُ للناسِ مِنْ بَدْوٍ ومِنْ حَضَرٍ بَعْضٌ لبعْضٍ وإن لم يشعروا خَدَمُ

إذن : فى التفـاضل يجب أن ننظر إلى زوايا الإنسـان المخـتلفة ؛

(١) قال قتادة : فتلقاه ضعيف الحيلة ، عيِّ اللسان ، وهو مبسوط له فى الرزق ، وتلقاه شديد الحيلة سليط اللسان وهو مقتور عليه . [الدر المنثور ٧/٣٧٥] .

(٢) سخره يسخره : أذله وقهره وأخضعه . [القاموس القويم ١/٣٠٦] .

لأن الجميع أمام الله سواء ، ليس منَّا مَن هو ابن لله ، وليس منَّا مَنْ بينه وبين الله نسبٌ أو قرابة ، ولا تجمعنا به سبحانه إلا صلة العبودية له عز وجل ، فالجميع أمام عطائه سواء ، لا يوجد أحد أَوْلَى من أحد .

فالعاقل حين ينظر في الحياة لا ينظر إلى تميُّزه عن غيره كموهبة ، بل يأخذ في اعتباره مواهب الآخرين ، وأنه محتاج إليها ، وبذلك يندكّ غروره ، ويعرف مدى حاجته لغيره . وكما أنه نابغ في مجال من المجالات ، فغيره نابغ في مجال آخر ؛ لأن النبوغ يأتي إذا صادف العمل الموهبة ، فهؤلاء البسطاء الذين تنظر إليهم نظرة احتقارٍ ، وترى أنهم دونك يمكن أن يكونوا نابغين لو صادف عملهم الموهبة .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً (٢١) ﴾ [الإسراء]

فإنْ كان التفاضل بين الناس في الدنيا قائماً على الأسباب المخلوقة لله تعالى ، فإن الأمر يختلف في الآخرة ؛ لأنها لا تقوم بالأسباب ، بل بالمسبب سبحانه ، فالمفاضلة في الآخرة على حسبها .

ولو تأملتَ حالك في الدنيا ، وقارنتَه بالآخرة لوجدتَ الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ، فعمرك في الدنيا موقوت ، وسينتهي إلى الموت ؛ لأن عمرك في الدنيا مدة بقائك فيها ، فإنْ بقيتْ من بعدك فهي لغيرك ، وكذلك ما فُضِّلْتَ به من نعيم الدنيا عُرْضَة للزوال ، حيث تناله الأغيار التي تطرأ على الإنسان .

فالغنىّ قد يصير فقيراً ، والصحيح سقيماً ، كما أن نعيم الدنيا على قَدْر إمكانياتك وتفاعلك مع الأسباب ، فالدنيا وما فيها من نعيم غير مُتيقَّنة وغير موثوق بها .

وهَبْ أنك تنعَّمْتَ في الدنيا بأعلى درجات النعيم ، فإن نعيمك هذا يُنغِّصه أمران : إما أنْ تفوت هذا النعيم بالموت ، وإما أنْ يفوتك هو بما تتعرّض له من أغيار الحياة .

أما الآخرة فعمرك فيها مُمتدّ لا ينتهي ، والنعمة فيها دائمة لا تزول ، وهي نعمة لا حدودَ لها ؛ لأنها على قَدْر إمكانيات المنعِم عز وجل ، في دار خلود لا يعتريها الفناء ، وهي مُتيقنة موثوق بها .

فأيهما أفضل إذن ؟ لذلك الحق سبحانه يدعونا إلى التفكُّر والتعقُّل :

﴿ انْظُرْ ﴾ أيّ الصفقتين الرابحة ، فتاجر فيها ولا ترضى بها بديلاً .

إذن : فالآخرة أعظم وأكبر ، ولا وجهَ للمقارنة بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة . وأذكر أننا سافرنا مرة إلى (سان فرانسيسكو) فأدخلونا أحد الفنادق ، لا للإقامة فيه ، ولكن لمشاهدة ما فيه من روعة وجمال ومظاهر الرقي والرفاهية .

وفعلاً كان هذا الفندق آية من آيات الإبداع والجمال ، فرأيتُ رفاقي وكانوا من علية القوم مبهورين به ، مأخوذين بروعته ، فقلت لهم عبارة واحدة : هذا ما أعد البشر للبشر ، فكيف بما أعدّه ربُّ البشر للبشر ؟

فنعيم الدنيا ومظاهر الجمال فيها يجب أنْ تثير فينا الشوق لنعيم دائم فى الجنة ؛ لا أنْ يثير فينا الحقد والحسد ، يجب أن نأخذ من مظاهر الترف والنعيم عند الآخرين وسيلة للإيمان بالله ، وأن نُصعِّد هذا الإيمان بالفكر المستقيم ، فإنْ كان ما نراه من ترف وتقدم ورُقىّ وعمارة فى الدنيا من صُنْع مهندس أو عامل ، فكيف الحال إنْ كان الصانع هو الخالق سبحانه وتعالى ؟

ويجب ألاَّ نغفلَ الفرْق بين نعيم الدنيا الذى أعدَّه البشر ونعيم الآخرة الذى أعدَّه الله تعالى ، فقصارى ما توصل إليه الناس فى رفاهية الخدمة أن تضغط على زر فيأتى لك منه الشاى مثلاً ، وتضغط على زر آخر فيأتى لك منه القهوة .

وهذه آلة تستجيب لك إنْ تفاعلتَ معها ، لكن مهما ارتقى هؤلاء ، ومهما تقدَّمت صناعتهم فلن يصلوا إلى أنْ يقدموا لك الشىء بمجرد أن يخطر على بالك ؛ لأن هذا من نعيم الجنة الذى أعده الخالق سبحانه لعباده الصالحين[1] .

إذن : فما دام الأمر كذلك ، وسلَّمنا بأن الآخرة أفضل وأعظم ، فما عليك إلاَّ أنْ تبادر وتأخذ الطريق القويم ، وتسلك طريق ربك من أقصر اتجاه ، وهو الاستقامة على منهج الله الواحد والالتزام به .

فيقول الحق سبحانه :

﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال قال الله عز وجل : « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » مصداق ذلك فى كتاب الله ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة] .

لأنه سبحانه أعطاك فى الدنيا ، وأمدَّك بالأسباب ، وبمقوِّمات حياتك ، أوجدك من عدم ، وأمدك من عُدْم ، حتى وإنْ كنت كافراً ، ثم أعدَّ لك فى الآخرة الدرجات العالية والنعيم المقيم الذى لا يَفْنى ولا يزول .

وهذه هى الحيثيات التى ينبغى عليك بعدها أن تعرفه سبحانه ، وتتوجّه إليه ، وتلتحم به وتكون فى معيته ، ولا تجعل معه سبحانه إلهاً آخر ؛ لأنك إنْ فعلتَ فلن تجد من هذا النعيم شيئاً ، لن تجد إلا المذمّة والخُذْلان فى الدنيا والآخرة .

وسوف تُفَاجأ فى القيامة بربك الذى دعاك للإيمان به فكفرْتَ .

﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ .. (٣٩) ﴾ [النور]

ساعتها ستندم حين لا ينفعك الندم ، بعد أن ضاعت الفرصة من يديك.

ويقول تعالى : ﴿ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً (٢٢) ﴾ [الإسراء]

والقعود ليس أمراً عادياً هنا ، بل هو أنكَى ما يصير إليه الإنسان ؛ لأن الإنسان لا يقعد إلا إذا أصبح غيرَ قادر على القيام ، ففيها ما يُشعر بإنهاك القوة ، وكأنه سقط إلى الأرض ، بعد أنْ أصبحتْ رِجلاه غير قادرتين على حَمْله ، ولم تَعُد به قوة للحركة .

ونلاحظ فى تعبير القرآن عن هذا الذى خارتْ قواه ، وانتهت تماماً ، أنه يختار له وَضْع القعود خاصة ، ولم يَقُلْ مثلاً : تنام ، لأن العذاب لا يكون مع النوم ، ففى النوم يفقد الإنسان الوعى فلا يشعر بالعذاب ، بل قال ﴿ فَتَقْعُدَ ﴾ هكذا شاخص يُقاسى العذاب ؛ لأن العذاب ليس للجوارح والمادة ، بل للنفس الواعية التى تُحِسّ وتألم .

ولذلك يلجأ الأطباء إلى تخدير المريض قبل إجراء العمليات الجراحية ؛ لأن التخدير يُفقده الوعى فلا يشعر بالألم .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [النساء]

وقال : ﴿ وَالْقَوَاعِدُ[1] مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [النور]

فالقعود يدل على عدم القدرة ، وفى الوقت نفسه لا يرتاح بالنوم ، فهو فى عذاب مستمر .

وفى مجال الذم قال الشاعر :

دَعِ المكَارِمَ لاَ ترحل لِبُغْيتِهَا وَاقْعُدْ فإنكَ أنتَ الطَّاعِمُ الكَاسى

وقوله : ﴿ مَذْمُومًا .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [الإسراء] لأنه أتى بعمل يذمه الناس عليه .

﴿ مَّخْذُولاً ﴿٢٢﴾ ﴾ [الإسراء] من الخذلان ، وهو عدم النُّصْرة ، فالأبعد فى موقف لا ينصره فيه أحد ، ولا يدافع عنه أحد ، لذلك يقول تعالى لهؤلاء : ﴿ مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الصافات]

ثم ينتقل بنا الحق سبحانه إلى قضية يعطينا فيها نوعاً من الاستدلال ، فيقول سبحانه :

---

(١) القواعد من النساء : هن اللواتى انقطع عنهن الحيض ويئسن من الولد . ولم يبق لهن تشوّف إلى التزوج . نقله ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٠٤) عن سعيد بن جبير ومقاتل ابن حيان والضحاك وقتادة .

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ[(1)] أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾

بعد أنْ وجّهنا الله تعالى إلى القضية العقدية الكبرى : ﴿ لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [الإسراء]

أراد سبحانه أنْ يُبيّن لنا أن العقيدة والإيمان لا يكتملان إلا بالعمل ، فلا يكفي أن تعرف الله وتتوجّه إليه ، بل لا بُدّ أنْ تنظر فيما فرضه عليك ، وفيما كلّفك به ؛ لذلك كثيراً ما نجد في آيات الكتاب الكريم الجمع بين الإيمان والعمل الصالح ، كما في قوله تعالى :

﴿ وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ [العصر]

لأن فائدة الإيمان وثمرته العمل الصالح ، وما دُمْتَ ستسلك هذا الطريق فانتظر مواجهة أهل الباطل والفساد والضلال ، فإنهم لن يدعُوك ولن يُسالموك ، ولا بُدّ أن تُسلّح نفسك بالحق والقوة والصبر ، لتستطيع مواجهة هؤلاء .

ودليل آخر على أن الدين ليس الإيمان القوليّ فقط ، أن كفار مكة لم يشهدوا أن لا إله إلا الله ، فلو كانت المسألة مسألةَ الإيمان بإله واحد وتنتهي القضية لكانوا قالوها وشهدوا بها ، إنما هم يعرفون

---

(١) قضى : أي : أمر وألزم وأوجب . قال ابن عباس والحسن وقتادة : وليس هذا قضاء حكم بل هو قضاء أمر . [تفسير القرطبي ٥/٣٩٦٥] .

تماماً أن للإيمان مطلوباً ، ووراءه مسئولية عملية ، وأن من مقتضى الإيمان بالله أن تعمل بمراده وتأخذ بمنهجه .

ومن هنا رفضوا الإيمان بإله واحد ، ورفضوا الانقياد لرسوله ﷺ الذى جاء ليُبلغهم مراد الله تعالى ، وينقل إليهم منهجه ، فمنهج الله لا ينزل إلا على رسول يحمله ويُبلِّغه للناس ، كما قال تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [الشورى]

وها هى أول الأحكام فى منهج الله : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ .. ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء]

وقد آثر الحق سبحانه الخطاب بـ ﴿ رَبُّكَ ﴾ على لفظ (الله) ؛ لأن الربَّ هو الذى خلقك وربَّاك ، ووالى عليك بنعمه ، فهذا اللفظ أدْعَى للسمع والطاعة ، حيث يجب أن يخجل الإنسان من عصيان المنعِم عليه وصاحب الفضل .

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ .. ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء]

الخطاب هنا مُوجَّه إلى النبى محمد ﷺ ؛ لأنه هو الذى بلغ المرتبة العليا فى التربية والأدب ، وهى تربية حقَّة ؛ لأن الله تعالى هو الذى ربَّاه ، وأدَّبه أحسن تأديب .

وفى الحديث الشريف : « أدَّبنى ربى فأحسن تأديبى »[1] .

---

(١) قال عبد الرحمن بن على الشافعى الشيبانى فى كتابه « تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث » (ص ١٧) عن هذا الحديث : « أخرجه العسكرى فى الأمثال عن على رضى الله عنه مرفوعاً فى حديث طويل . قال شيخنا : سنده ضعيف . ولكن معناه صحيح » .

قضى : معناها : حكم ؛ لأن القاضي هو الذي يحكم ، ومعناها أيضاً : أمر ، وهي هنا جامعة للمعنيين ، فقد أمر الله ألاَّ تعبدوا إلا إيَّاه أمراً مؤكداً ، كأنه قضاء وحكم لازم .

وقد تأتي قضى بمعنى : خلق . كما في قوله تعالى : ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ .. (١٢)﴾ [فصلت]

وتأتي بمعنى : بلغ مراده من الشيء ، كما في قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا[1] زَوَّجْنَاكَهَا .. (٣٧)﴾ [الأحزاب]

وقد تدل على انتهاء المدة كما في : ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ .. (٢٩)﴾ [القصص]

وتأتي بمعنى : أراد كما في : ﴿فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٦٨)﴾ [غافر]

إذن : قضى لها معانٍ مُتعدِّدة ، لكن تجتمع كلها لتدل على الشيء اللازم المؤكّد الذي لا نقصَ فيه .

وقوله : ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ .. (٢٣)﴾ [الإسراء]

العبادة : هي إطاعة آمر في أمره ونهيه ، فتنصاع له تنفيذاً للأمر ، واجتناباً للنهي ، فإنْ تركَ لك شيئاً لا أمرَ فيه ولا نهيَ فاعلم أنه ترك لك الاختيار ، وأباح لك : تفعل أو لا تفعل .

---

(١) الوطر : الحاجة التي يعتني بها الإنسان ويهتم لها وإذا بلغها قيل إنه قضى وطره ، أي : حقق رغبته وقضى حاجته وانتهى من أمرها . ومعنى قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا .. (٣٧)﴾ [الأحزاب] . أي : فلما طلقها ولم يعد بحاجة لها . [القاموس القويم ٣٤٣/٢] .

لذلك ، فالكفار الذين عبدوا الأصنام والذين أتوا بها حجارةً من الصحراء ، وأعملوا فيها المعاول والأدوات لينحتوها ، وتكسرت منهم فعالجوها ، ووقعت فأقاموها ، وهم يرون كم هي مهينة بين أيديهم لدرجة أن أحدهم رأى الثعلب يبول برأس أحد الأصنام فقال مستنكراً حماقة هؤلاء الذين يعبدونها :

أَرَبٌّ يبولُ الثُّعلَبانُ برأسِهِ لَقَدْ ذَلَّ مَنْ بَالَتْ عَليْهِ الثَّعَالبُ

فإذا ما تورطوا في السؤال عن آلهتهم هذه قالوا : إنها لا تضر ولا تنفع ، وما نعبدها إلا ليقربونا إلى الله زُلْفى ، كيف والعبادة طاعة أمر واجتناب نهي . فبأيّ شيء أمرتكم الأصنام ؟ وعن أيّ شيء نهتْكُمْ ؟! إذن : كلامُكم كذب في كذب .

وفي قوله تعالى : ﴿ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ .. (٢٣) ﴾ [الإسراء]

أسلوب يسمونه أسلوب قَصْر ، يفيد قصر العبادة وإثباتها لله وحده ، بحيث لا يشاركه فيها أحد . فلو قالت الآية : وقضى ربك أن تعبدوه .. فلقائل أن يقول : ونعبد غيره لأن باب العطف هنا مفتوح لم يُغلَق ، كما لو قُلْت : ضربتُ فلاناً وفلاناً وفلاناً .. هكذا باستخدام العطف . إنما لو قلت : ما ضربت إلا فلاناً فقد أغلقتَ باب العطف .

إذن : جاء التعبير بأسلوب القصر ليقول : اقصروا العبادة عليه سبحانه ، وانفوها عن غيره .

ثم ينقلنا الحق سبحانه إلى التكليف والأمر الثاني بعد عبادته : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (٢٣) ﴾ [الإسراء]

وقد قرن الله تعالى بين عبادته وبين الإحسان إلى الوالدين في

آيات كثيرة ، قال تعالى : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (٣٦)﴾ [النساء]

وقال : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (١٥١)﴾ [الأنعام]

وقال : ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا .. (٨)﴾ [العنكبوت]

لكن ، لماذا قرن الله تعالى بين عبادته وبين الإحسان إلى الوالدين ؟ أتريد أن نقرب الأولى بالثانية ، أم نقرب الثانية بالأولى ؟

نقول : لا مانع أن يكون الأمران معاً ؛ لأن الله تعالى غَيْب ، والإيمان به يحتاج إلى إعمال عقل وتفكير ، لكن الوالدين بالنسبة للإنسان أمر حسيّ ، فهما سرُّ وجوده المباشر ، وهما ربَّياه ووفَّرا له كل متطلبات حياته ، وهما مصدر العطف والحنان .

إذن : التربية والرعاية في الوالدين مُحسَّة ، أما التربية والرعاية من الله فمعقولة ، فأمْر الله لك بالإحسان إلى الوالدين دليل على وجوب عبادة الله وحده لا شريك له ، فهو سبحانه الذي خلقك ، وهو سبب وجودك الأول ، وهو مُربِّيك وصاحب رعايتك ، وصاحب الفضل عليك قبل الوالدين ، وهل.رباك الوالدان بما أوجداه هما ، أم بما أوجده الله سبحانه ؟

إذن : لابد أن يلتحم حَقُّ الله بحقِّ الوالدين ، وأن نأخذ أحدهما دليلاً على الآخر .

ونلاحظ أن الحق تبارك وتعالى حين أمرنا بعبادته جاء بأسلوب النفي : ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا .. (٢٣)﴾ [الإسراء]

يعنى نهانا أن نعبد غيره سبحانه ، أما حين تكلم عن الوالدين فلم يقل مثلاً : لا تسيئوا للوالدين ، فيأتى بأسلوب نفى كسابقه ، لماذا ؟

قالوا : لأن فضل الوالدين واضح لا يحتاج إلى إثبات ، ولا يحتاج إلى دليل عقلىّ ، وقولك : لا تسيئوا للوالدين يجعلهما مَظنَّة الإساءة ، وهذا غير وارد فى حقّهما ، وغير مُتصوَّر منهما ، وأنت إذا نفيتَ شيئاً عن مَنْ لا يصح أن ينفى عنه فقد ذَمَمْته ، كأن تنفى عن أحد الصالحين المشهورين بالتقوى والورع ، تنفى عنه شرب الخمر مثلاً فهل هذا فى حقه مدح أم ذم ؟

لأنك ما قلتَ : إن فلاناً لا يشرب الخمر إلا إذا كان الناس تظنّ فيه ذلك . ومن هنا قالوا : نَفْى العيب عمَّنْ لا يستحق العيب عَيْب .

إذن : لم يذكر الإساءة هنا ؛ لأنها لا تَرِد على البال ، ولا تُتصوّر من المولود لوالديه .

وبعد ذلك ، ورغم ما للوالدين من فضل وجميل عليك فلا تنسَ أن فضل الله عليك أعظم ؛ لأن والديك قد يكِداَنِك ويُسْلمانك إلى الغير ، أما ربك فلن يُسلمك إلى أحد .

وقوله تعالى : ﴿إِحْسَانًا .. (٢٣)﴾ [الإسراء]

كأنه قال : أَحْسِنوا إليهم إحساناً ، فحذف الفعل وأتى بمصدره للتأكيد .

وقوله تعالى : ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا[1] وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣)﴾ [الإسراء]

(١) نهر وانتهر : زَجَر . والانتهار : الزجر ، واستقباله بكلام تزجره به . [لسان العرب - مادة : نهر] بتصرف .

الحق سبحانه وتعالى حينما يوصينا بالوالدين ، مرة تأتى الوصية على إطلاقها ، كما قال تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا .. ﴿١٥﴾ ﴾ [الأحقاف]

ومرّة يُعلِّل لهذه الوصية ، فيقول : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ.. ﴿١٤﴾ ﴾ [لقمان]

والذى يتأمل الآيتين السابقتين يجد أن الحق سبحانه ذكر العلّة فى برِّ الوالدين ، والحيثيات التى استوجبت هذا البرّ ، لكنها خاصة بالأم ، ولم تتحدث أبداً عن فضل الأب ، فقال : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا .. ﴿١٥﴾ ﴾ [الأحقاف]

وقال : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [لقمان]

فأين دَوْر الأب ؟ وأين مجهوداته طوال سنين تربية الأبناء ؟

المتتبع لآيات بر الوالدين يجد حيثية مُجْملة ذكرت دور الأب والأم معاً فى قوله تعالى : ﴿ كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا.. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الإسراء]

لكن قبل أن يُربِّى الأب ، وقبل أن يبدأ دوره كان للأم الدور الأكبر ؛ لذلك حينما تخاصم الأب والأم لدى القاضى على ولد لهما ، قالت الأم : لقد حمله خِفّاً وحملتُه ثقلاً ، ووضعه شهوة ووضعتُه كرهاً .

لذلك ذكر القرآن الحيثيات الخاصة بالأم ؛ لأنها تحملتها وحدها لم يشاركها فيها الزوج[1] ؛ ولأنها حيثيات سابقة لإدراك الابن فلم

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٣٩٦٧/٥) : « وذلك أن صعوبة الحمل ، وصعوبة الوضع ، وصعوبة الرضاع والتربية تنفرد بها الأم دون الأب ، فهذه ثلاث منازل يخلو منها الأب » .

يشعر بها ، فكأنه سبحانه وتعالى أراد أنْ يُذكّرنا بفضل الأم الذى لم ندركه ولم نُحِسَّ به .

وذلك على خلاف دور الأب فهو محسوس ومعروف للابن ، فأبوه الذى يوفر له كل ما يحتاج إليه ، وكلما طلب شيئاً قالوا : حينما يأتى أبوك ، فدَوْر الأب - إذن - معلوم لا يحتاج إلى بيان .

والآية هنا أوصتْ بالوالدين فى حال الكِبَر ، فلماذا خَصَّتْ هذه الحال دون غيرها ؟

قالوا : لأن الوالدين حال شبابهما وقُوتهما ليسا مظنّة الإهانة والإهمال ، ولا مجال للتأفف والتضجُّر منهما ، فهما فى حال القوة والقدرة على مواجهة الحياة ، بل العكس هو الصحيح نرى الأولاد فى هذه الحال يتقربون للآباء ، ويتمنون رضاهما ، لينالوا من خيرهما .

لكن حالة الكِبَر ، ومظهر الشيخوخة هو مظهر الإعالة والحاجة والضعف ، فبعد أنْ كان مُعْطياً أصبح آخذاً ، وبعد أنْ كان عائلاً أصبح عالة .

لذلك ، فالنبى ﷺ فى حديث الآمينات والمراغم ، وكان على المنبر ، فسمعه الصحابة يقول : آمين . ثم سكت برهة . وقال : آمين وسكت . ثم قال : آمين . فلما نزل قالوا : يا رسول الله سمعناك تقول : آمين ثلاثاً . فقال :

جاءنى جبريل فقال : رغم أنف مَنْ ذُكِرْتَ عنده ولم يُصلِّ عليك ، قل : آمين . فقلت : آمين ، ورغم أنف مَنْ أدرك رمضان فلم يُغفر له ، قل : آمين . فقلت : آمين ، ورغم أنف مَنْ أدرك والديه -

أو أحدهما ـ فلم يدخل بهما الجنة ، قل : آمين . فقلت : آمين »[1] .

فخصَّ الحق سبحانه حال الكِبَر ، لأنه حال الحاجة وحال الضعف ؛ لذلك قال أحد الفلاسفة : خَيْر الزواج مبكره ، فلما سُئِل قال : لأنه الطريق الوحيد لإنجاب والد يعولك فى طفولة شيخوختك ، وشبَّه الشيخوخة بالطفولة لأن كليهما فى حال ضعف وحاجة للرعاية والاهتمام .

وصدق الحق سبحانه حين قال : ﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً .. (٥٤) ﴾ [الروم]

فَمنْ تزوّج مبكراً فسوف يكون له من أولاده مَنْ يُعينه ويساعده حال كِبَره .

والمتأمل فى قوله تعالى : ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ .. (٢٣) ﴾ [الإسراء]

لم تَأتِ صفةَ الكِبَر على إطلاقها ، بل قيّدها بقوله : ﴿ عِندَكَ ﴾ فالمعنى : ليس لهما أحد غَيرك يرعاهما ، لا أخ ولا أخت ولا قريب يقوم بهذه المهمة ، وما دام لم يَعُدْ لهما غيرك فلتكُنْ على مستوى المسئولية ، ولا تتنصَّل منها ؛ لأنك أَوْلَى الناس بها .

ويمتد البِرُّ بالوالدين إلى ما بعد الحياة بالاستغفار لهما ، وإنجاز ما أحدثاه من عهد ، ولم يتمكَّنا من الوفاء به ، وكذلك أن نصِلَ الرحم

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٢/٣٤٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال ﷺ : « رغم أنف ، رغم أنف ، رغم أنف رجل أدرك والديه ، أحدهما أو كلاهما عنده الكبر لم يدخله الجنة » . وأخرجه بطوله دون ذكر جبريل ، الترمذى فى سننه (٣٥٤٥) وقال : حديث حسن غريب .

التى لا تُوصَلَ إلا بهما من قرابة الأب والأم ، ونَصِلَ كذلك أصدقاءهما وأحبابهما ونَودُّهم .

وقد كان ﷺ يودّ صاحبات السيدة خديجة ـ رضى الله عنها ـ وكان يستقبلهن ويكرمهن[1] .

وانظر إلى سُمُوّ هذا الخلق الإسلامى ، حينما يُعدَّى هذه المعاملة حتى إلى الكفار ، فقد جاءت السيدة أسماء إلى رسول الله ﷺ تسأله فى أمها التى أتتْها ، وأظهرت حاجة مع أنها كافرة ، فقال لها : « صِلِى أمك »[2] .

بل وأكثر من ذلك ، إنْ كان الوالدان كافرين ليس ذلك فحسب بل ويدعوان الابن إلى الكفر ، ويجاهدانه عليه ، ومع هذا كله يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .. (١٥) ﴾ [لقمان]

فهذه ارتقاءات ببرّ الوالدين تُوضّح عظمة هذا الدين ورحمة الخالق سبحانه بالوالدين حتى فى حال كفرهما ولَدَدهما[3] فى الكفر .

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : استأذنت هالة بنت خويلد ، أخت خديجة ، على رسول الله ﷺ فعرف استئذان خديجة ، فارتاح لذلك ، فقال : « اللهم هالة بنت خويلد » فغرت فقلت : وما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين ، هلكت فى الدهر ، فأبدلك الله خيراً منها . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٤٣٧) وفى حديث آخر (٢٤٣٤) أنه كان إذا ذبح شاة قال : « أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة » .

(٢) عن أسماء بنت أبى بكر قالت : قدمت علىّ أمى وهى مشركة فى عهد قريش إذ عاهدهم ، فاستفتيت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله قدمت علىّ أمى وهى راغبة ، أفأصل أمى ؟ قال : نعم . صلى أمك » . أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠٠٣) والبخارى فى صحيحه (٥٩٧٩) .

(٣) اللدد : العداوة الشديدة . والشديد الخصومة . [لسان العرب ـ مادة : لدد] .

ويُرْوَى أن خليل الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ جاءه ضيف بليل ، وأراد أن ينزل في ضيافته ، فسأله إبراهيم ـ عليه السلام ـ عن دينه فقال : مجوسى فأعرض عنه وتركه يذهب . فَسرْعان ما أوحى الحق سبحانه إلى إبراهيم مُعاتباً إياه فى أمر هذا الضيف : يا إبراهيم لقد وَسعْتُه فى ملكى أعواماً عديدة ، أطعمه وأسقيه وأكسوه وهو كافر بى ، وأنت تُعرض عنه وتريد أنْ تُغيِّر دينه من أجل ليلة يبيتها عندك . فأسرع الخليل خلف الضيف حتى لحق به ، وحكى له ما حدث ، فقال الرجل . نِعْم الرب ربٌّ يعاتب أحبابه فى أعدائه ، وشهد أن لا إله إلا الله ، وأن إبراهيم رسول الله .

وقد رأى المستشرقون لضيق أُفُقهم وقلّة فقْههم لأسلوب القرآن الكريم ، رأَوْا تناقضاً بين قوله تعالى : ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا.. (١٥)﴾ [لقمان]

وبين قوله تعالى : ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ..(٢٢)﴾ [المجادلة]

فكيف يأمر القرآن بمصاحبة الوالدين وتقديم المعروف لهما ، فى حين ينهى عن مودّة مَنْ حَادّ الله ورسوله ؟

ولو فَهِم هؤلاء مُعْطيات الأسلوب العربى الذى جاء به القرآن لعلموا أن المعروف غير الودّ ؛ لأن المعروف يصنعه الإنسان مع مَنْ يحب ، ومع مَنْ يكره ، مع المؤمن ومع الكافر ، تُطعمه إذا جاع ، وتسقيه إذا عطش ، وتستره إنْ كان عرياناً ، أما المودة فلا تكون إلا لمَنْ تحب ؛ لأنها عمل قلبىّ .

وقوله تعالى : ﴿فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣)﴾ [الإسراء]

وهذا توجيه وأدب إلهيّ يُراعي الحالة النفسية للوالدين حال كِبَرهما ، وينصح الأبناء أن يكونوا على قدر من الذكاء والفطْنة والأدب والرِّفْق في التعامل مع الوالدين في مثل هذه السن .

الوالد بعد أنْ كان يعطيك وينفق عليك أصبح الآن مُحتاجاً إليك ، بعد أنْ كان قوياً قادراً على السعي والعمل أصبح الآن قعيدَ البيت أو طريحَ الفراش ، إذن : هو في وَضْع يحتاج إلى يقظة ولباقة وسياسة عالية ، حتى لا نجرح مشاعره وهي مُرْهفة في هذه الحال .

وتأمل قول الله تعالى : ﴿فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ .. (٢٣)﴾ [الإسراء]

وهي لفظة بسيطة أقلّ ما يقال ، وهذه لفظة قَسْرية تخرج من صاحبها قهراً دون أن تمر على العقل والتفكير ، وكثيراً ما نقولها عند الضيق والتبرُّم من شيء ، فالحق سبحانه يمنعك من هذا التعبير القَسْري ، وليس الأمر الاختياري .

و ﴿ أُفٍّ ﴾ اسم فعل مضارع بمعنى : أتضجر ، وهذه الكلمة تدل على انفعال طبيعي ، ولكن الحق سبحانه يُحذِّرك منه ، ويأمرك بأن تتمالكَ مشاعرك ، وتتحكّم في عواطفك ، ولا تنطق بهذه اللفظة .

ومعلوم أنه سبحانه إذا نهاني عن هذه فقد نهاني عن غيرها من باب أَوْلى ، وما دامتْ هي أقلّ لفظة يمكن أنْ تُقال . إذن : نهانيَ عن القول وعن الفعل أيضاً .

ثم أكّد هذا التوجيه بقوله : ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا .. ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء]

والنهر هو الزَّجْر بقسوة ، وهو انفعال تَالٍ للتضجُّر وأشدّ منه قسوة ، وكثيراً ما نرى مثل هذه المواقف في الحياة ، فلو تصوَّرنا الابن يعطي والده كوباً من الشاي مثلاً فارتعشت يده فأوقع الكوب فوق سجادة ولده الفاخرة ، وسريعاً ما يتأفّف الابن لما حدث لسجادته ، ثم يقول للوالد من عبارات التأنيب ما يؤلمه ويجرح مشاعره .

إذن : كُنْ على حذر من التأفف ، ومن أن تنهر والديك ، كُنْ على حذر من هذه الألفاظ التي تسبق إلى اللسان دون فِكْر ، ودون تعقّل .

ثم بعد هذا النهي المؤكد يأتي أمر جديد ليؤكد النهي السابق : ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء]

وفي هذا المقام تُرْوَى قصة الشاب الذي أوقع أبوه إناء الطعام على ثيابه ، فأخذ الولد يلعق الطعام الذي وقع على ثوبه وهو يقول لوالده : أطعمك الله كما أطعمتني ، فحوّل الإساءة إلى جميل يُحمَدَ عليه .

والآخر الذي ذهب يتمرّغ تحت أقدام أمه ، فقالت له : كفى يا بني ، فقال : إنْ كنتِ تُحبّينني حقاً فلا تمنعيني من عمل يُدخلني الجنة .

والقول الكريم هنا نوع من التصرُّف واللباقة في معاملة الوالدين ، خاصة حال الشيخوخة التي قد تُقعِد صاحبها ، أو المرض الذي يحتاج إلى مساعدة الغير ، والأولاد هم أَوْلَى الناس بإعالة الوالدين في

هذه الظروف ، حيث سيبدو من الإنسان مَا لا يصح الاطلاع عليه إلا لأولاده وأقرب الناس إليه .

وهَبْ أن الوالد المريض أو الذى بلغ من الكِبَر عتياً يريد أنْ يقضى حاجته ، ويحتاج لمن يحمله ويُقعده ويُريحه ، وينبغى هنا أن يقول الابن لأبيه : هَوِّن عليك يا والدى ، وأعطنى فرصة أردّ لك بعض جميلك علىّ ، فلكَمْ فعلتَ معى أكثر من هذا .

وهو مع ذلك يكون مُحباً لوالده ، رفيقاً به ، حانياً عليه لا يتبرَّم به ، ولا يتضجر منه ، هذا هو القول الكريم الذى ينتقيه الأبناء فى المواقف المختلفة .

فمثلاً : قد يزورك أبوك فى بيتك وقد يحدث منه أنْ يكسر شيئاً من لوازم البيت ، فتقول له فى هذا الموقف : فداك يا والدى ، أو تقول : لا عليك لقد كنت أفكر فى شراء واحدة أحدث منها . أو غيره من القول الكريم الذى يحفظ للوالدين كرامتهما ، ولا يجرح شعورهما .

وكثيراً ما يأتى المرض مع كِبَر السن ، فترى الوالد طريحَ الفراش أو مشلولاً - عافانا الله وإياكم - لذلك فهو فى أمسّ الحاجة لمن يُخفّف عنه ويُواسيه ، ويفتح له باب الأمل فى الشفاء ويُذكّره أن فلاناً كان مثله وشفاه الله ، وفلاناً كان مثله وأخذ الله بيده ، وهو الآن بخير ، وهكذا .

ومع هذا ، كُنْ على ذِكْر لفضل الوالدين عليك ، ولا تَنْسَ ما كان عندهما حال طفولتك من عاطفة الحب لك والحنان عليك ، وأن الله

تعالى جعل هذه العاطفة الأبوية تقوى مع ضعفك ، وتزيد مع مرضك وحاجتك ، فترى الابن الفقير محبوباً عن أخيه الغنى ، والمريض أو صاحب العاهة محبوباً عن الصحيح ، والغائب محبوباً عن الحاضر ، والصغير محبوباً عن الكبير ، وهكذا على قَدْر حاجة المربَّى يكون حنان المربِّى .

إذن : نستطيع أن نأخذَ من هذا إشارة دقيقة يجب ألاَّ نغفل عنها ، وهى : إنْ كان بر الوالدين واجباً عليك فى حال القوة والشباب والقدرة ، فهو أوجب حالَ كبرهما وعجزهما ، أو حال مرضهما .

ثم يرشدنا الحق سبحانه إلى حسن معاملة الوالدين ، فيقول :

﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ
وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾

﴿ وَاخْفِضْ ﴾ : الخفْض ضد الرّفْع .

﴿ جنَاحَ الذُّلِّ ﴾ : الطائر معروف أنه يرفع جناحه ويُرفْرِف به ، إنْ أراد أن يطير ، ويخفضه إنْ أراد أن يحنوَ على صغاره ، ويحتضنهم ويغذيهم .

وهذه صورة مُحسَّة لنا ، يدعونا الحق سبحانه وتعالى أن نقتدى بها ، وأن نعامل الوالدين هذه المعاملة ، فنحنو عليهم ، ونخفض لهم الجناح ، كنايةٌ عن الطاعة والحنان والتواضع لهما ، وإياك أن تكون كالطائر الذى يرفع جناحيه ليطير بهما مُتعالياً على غيره .

وكثيراً ما يُعطينا الشرع الحكيم أمثلة ونماذج للرأفة والرحمة فى الطيور ، ويجعلها قدوة لنا بنى البشر . والذى يرى الطائر يحتضن صغاره تحت جناحه ، ويزقّهم[1] الغذاء يرى عجباً ، فالصغار لا يقدرون على مضغ الطعام وتكسيره ، وليس لديهم اللعاب الذى يساعدهم على أنْ يزدردوا الطعام ، فيقوم الوالدان بهذه المهمة ، ثم يناولانهم غذاءهم جاهزاً يسهل بلْعه ، وإنْ تيسر لك رؤية هذا المنظر فسوف ترى الطائر وفراخه يتراقصون فرحة وسعادة .

إذن : قوله تعالى : ﴿ جَنَاحَ الذُّلِّ .. (٢٤) ﴾ [الإسراء]

كناية عن الخضوع والتواضع ، والذُّل قد يأتى بمعنى القهر والغلبة ، وقد يأتى بمعنى العطف والرحمة ، يقول تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ .. (٥٤) ﴾ [المائدة]

فلو كانت الذلّة هنا بمعنى القهر لقال : أذلة للمؤمنين ، ولكن المعنى : عطوفين على المؤمنين . وفى المقابل ﴿ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ .. (٥٤) ﴾ [المائدة]

أى : أقوياء عليهم قاهرين لهم .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. (٢٩) ﴾ [الفتح]

لأن الخالق سبحانه لم يخلق الإنسان رحيماً على الإطلاق ،

---

(١) زقّه : أطعمه بفيه (بفمه) . [لسان العرب ـ مادة : زقق] .

ولا شديداً على الإطلاق ، بل خلق فى المؤمن مرونة تمكّنه أن يتكيف تبعاً للمواقف التى يمر بها ، فإنْ كان على الكافر كان عزيزاً ، وإنْ كان على المؤمن كان ذليلاً متواضعاً .

ونرى وضوحَ هذه القضية فى سيرة الصِّديق أبى بكر والفاروق عمر رضى الله عنهما ، وقد عُرِف عن الصِّديق اللين ورِقّة القلب والرحمة ، وعُرِف عن عمر الشدة فى الحق والشجاعة والقوة ، فكان عمر كثيراً ما يقول لرسول الله ﷺ إذا تصادم بأحد المعاندين : « إئذن لى يا رسول الله أضرب عنقه »[1] .

وعندما حدثت حروب الردة بعد وفاة الرسول ﷺ كان لكل منهما موقف مغاير لطبيعته ، فكان مِنْ رأى عمر ألاَّ يحاربهم فى هذه الفترة الحرجة من عمر الدعوة ، فى حين رأى الصديق محاربتهم والأخْذ على أيديهم بشدة حتى يعودوا إلى ساحة الإسلام ، ويُذعنوا لأمر الله تعالى فقال : « والله ، لو منعونى عقالاً كانوا يُؤدُّونه لرسول الله لجالدتهم عليه بالسيف ، والله لو لم يَبْق إلا الزرع »[2] .

وقد جاء هذا الموقف من الصِّديق والفاروق لحكمة عالية ، فلو قال عمر مقالة أبى بكر لكان شيئاً طبيعياً يُنْسب إلى شدة عمر

---

(١) وقد روت لنا السنةُ طرفاً من هذا ، فعن أبى سعيد الخدرى قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسْماً أتاه ذو الخويصرة ، وهو رجل من بنى تميم . فقال : يا رسول الله اعدل . قال رسول الله ﷺ : « ويلك من يعدل إن لم أعدل ؟ قد خبت وخسرت إن لم أعدل » فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : يا رسول الله ، ائذن لى فيه أضرب عنقه . أخرجه مسلم فى صحيحه (٧٤٤/٢) كتاب الزكاة ـ باب ذكر الخوارج وصفاتهم .

(٢) متفق عليه ـ أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٢٨٤ ، ٧٢٨٥) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٠) كتاب الإيمان . من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وجرأته ، لكنه أتى من صاحب القلب الرحيم الصِّديق - رضى الله عنه - ليعرف الجميع أن الأمر ليس للشدة لذاتها ، ولكن للحفاظ على الدين والدفاع عنه .

وكان الموقف هو الذى صنع أبا بكر ، وتطلب منه هذه الشدة التى تغلبت على طابع اللين السائد فى أخلاقه .

فيقول تعالى :﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ.. ﴿٢٤﴾ ﴾[الإسراء]

إذن : الذلَّة هنا ذلّة تواضع ورحمة بالوالدين ، ولكن رحمتك أنت لا تكفى ، فعليك أن تطلب لهما الرحمة الكبرى من الله تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الإسراء]

لأن رحمتك بهما لا تَفِى بما قدّموه لك ، ولا ترد لهما الجميل ، وليس البادىء كالمكافىء ، فهم أحسنوا إليك بداية وأنت أحسنتَ إليهما ردّاً ؛ لذلك ادْعُ الله أنْ يرحمهما ، وأنْ يتكفل سبحانه عنك برد الجميل ، وأن يرحمهما رحمة تكافىء إحسانهما إليك .

وقوله تعالى : ﴿ كَمَا رَبَّيَانِي .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الإسراء]

كما : قد تفيد التشبيه ، فيكون المعنى : ارحمهما رحمة مثل رحمتهما بى حين ربيانى صغيراً . أو تفيد التعليل : أى ارحمهما لأنهما ربيانى صغيراً ، كما قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ.. ﴿١٩٨﴾ ﴾ [البقرة]

و ﴿ رَبَّيَانِي ﴾ هذه الكلمة أدخلت كل مُربٍّ للإنسان فى هذا الحكم ، وإنْ لم يكُنْ من الوالدين ، لأن الولد قد يُربِّيه غير والديه لأىِّ ظرف من الظروف ، والحكم يدور مع العلة وجوداً وعَدماً ، فإنْ ربّاك